عصافير زرقاء

قصّة حرّيّة من قبضة الحرب

إنجي جرّوج

رسوم: حسان مناصرة

جبل عمّان Jabal Amman PUBLISHERS

Blue Birds

Copyright © Jabal Amman Publishers, 2021.
All Rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

عصافير زرقاء

الطبعة العربية الأولى ٢٠٢١م

حقوق الطبع محفوظة

تأليف: إنجي جزُّوج

رسوم: حسان مناصرة

جبل عمَّان ناشرون

ص.ب. ٣٠٦٢، عمَّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٥٥٥٩ ٤٦٤ ٦ ٩٦٢+

Email: info@JAPublishers.com

www.JAPublishers.com

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٩/٥١٤٨

ISBN 978-9923-12-041-5

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Endorsed by: UNHCR The UN Refugee Agency

إهداء

إلى كلِّ طفلٍ ما زال يؤمنُ بالحبِّ رُغمَ الحرب.
إلى عائلتي التي دعَمَتْني وعلَّمَتْني
كيف ألوِّنُ حياتي وسطَ السَّواد المحيط.

الطُّفولة

تُقرَعُ الطبولُ في داخلي...

لكنَّ تلك الأصوات لا تحذِّرُ من اقتراب الحرب،
بل تدعو إلى غَفوة- غفوة عميقة
ما بين أحضان النور وعلى غيوم السماء.

أشعرُ كأنِّي محلِّقٌ إلى أعلى دون أيَّة أثقال،
وكأنَّ أحدًا أعطاني رفًّا متينًا أستطيعُ تَرْك كلَّ أحمالي عليه.
أحلِّقُ أبعَدَ بعيدًا من دخانٍ أسود، وضجيجٍ أصمَّ،
وأضواء مُعمِية، وكذلك بعيدًا من أبنية الأرض العالية.
أحلِّقُ إلى منزلِ أمانٍ يبقى معي أينما ذهبت.
كأنَّ وطني أصبحَ الفضاء،
وكأنَّ منزلي شمسٌ في سماء نهار، أو قمر في عتمة ليل.
يا له من فضاء رحبٍ بلا جدرانَ ولا حدود
ليست فيه أبنية ولا أسوار!

أشعرُ بأنَّ النورَ من حَولي يدخلُ ويخرج من باطن يدي،
وأشعرُ بأنَّ نفسي وجدتْ ذاتَها.
رُكْبَتاي مغروستان في باطن الأرض
كجذورِ زيتونةٍ عتيقة،
وكفَّاي متسكِّعان بعفويَّة عليهما
موجَّهان إلى الأعلى كدوَّار الشمس.

أغمضُ عينيَّ وأسترجع ما كان.

في شمال وسط سوريا، على الضَّفَّة الشماليَّة لنهر الفرات،
ترقصُ مدينة الرقَّة تحت شمس مشرقةٍ
وعلى أرضٍ عسليَّة تتخلَّلها بعضُ الخُضْرةِ
التي تتزايد ما إنِ اقترَبْنا من هذا النهر الكريم.
هناك في شارعٍ بسيطٍ من حيٍّ أبسط
كنتُ أعيش مع عائلتي الصغيرة.

ربَّما لم تكن حياتي مثاليَّةً، لكنَّها كانت مُرضِيةً لطفلٍ
يُبحِرُ في خياله وينثرُ بصماته المبتهجة فوق ألعابه-
لطفلٍ توقِظُه دَغدَغةُ قُبلات أمِّه لخدِّه،
وتدليك كلماتها الحلوة لأذنَيه كلَّ صباحٍ
ليبدأ يومه ويُنهيَه مستلقيًا متعبًا على الفراش
من المغامرات اليوميَّة مع روائع والده.
لقد كانت حياةً طبيعيَّة، فيها أصدقاء وطعام
وعائلة ومدرسة وأحلامٌ ومحبَّة.

كان الصباح مثل أيِّ صباح
يبدأ بمرافقة أبي إلى المدرسة،
ثمَّ قيادة درَّاجتي في شوارع حيِّنا
التي أجدُها تضيق كلَّما كبرتُ،
لينتهيَ اليوم بعشاءٍ عائليٍّ أخبرُ فيه والديَّ بكلِّ ما فعلت.

كان منزلي فسيحًا وفارغًا حين يكون أبي في العمل،
ثمَّ يصبح صغيرًا ومزدحمًا عند عودته.
وكأنَّ وجودَه كان يخلقُ ضجَّةً صامتةً تراقِصُ أركان البيت.
كانت النوافذ الخشبيَّة لغرفة الجلوس
ترحِّبُ بالشمس كلَّ صباح
لتلتقيَ رائحةَ طبخ أمِّي المنبعثة من مطبخنا الصغير،
فتقعَ في غرامها.
أظنُّ أنَّ أبي أيضًا وقعَ في غرام أمِّي
بعد أنِ اشتمَّ رائحةَ طبخها ذي المذاق الذي لا يُقاوَم.

كانت غرفتي ملآنةً بصَناديق الألعاب الملوَّنة
التي تتنحَّى جانبًا ليتصدَّرَ المكان تلفازنا الأسود.
كنتُ أحبُّ كثيرًا مشاهدةَ التلفاز
والاستماع إلى قصص أمِّي
التي تتكلَّم عن حرِّيَّة العصافير الزرقاء.

لطالما رغبتُ في الطيران
لألتمسَ هذه الحرِّيَّة التي تتكلَّم عنها.

أذكرُ مرَّة أنِّي وقفتُ على سريري،
وكنتُ أشعرُ بقدميَّ تلمسانِ فراشَ السرير،
وألاحظُ التجاعيد المتكوِّنة على غطاء أسفل قدميَّ–
تجاعيدُ تَعَبٍ كأنَّها لمسُنٍّ يودِّع الحياة لولادةٍ جديدة.
في الوقت ذاته، كنتُ أسمَعُ صوتًا في داخلي.
وكان الصوتُ يدفعني كتيَّارٍ
دخلَ لكنَّه لا ينوي الخروج قبل أن يحملني.

إنَّه لم يدخُلْ حتَّى،
بل أنا واثقٌ بأنَّه تكوَّن في الداخل- في صميم الداخل.
أغمضتُ عينيَّ ورَمَيتُ نفسي إلى الهواء لأطير،
لكنِّي انتَهيتُ متمدِّدًا على الأرض أصرخُ من وجعٍ
يتمشَّى متثاقِلًا بين قدميَّ ويديّ.
راحتْ أنفاسي المتصاعدة توبِّخ ذلك التيَّار،
لكنْ رغمَ ذلك التوبيخ كان ما يزالُ هنالك
بصيصٌ غريبٌ يسكن داخلي،
وأنا متيقِّنٌ بقدرته على إحداثِ تيَّارٍ آخر.

كان أبي ماردًا سحريًّا.
كنتُ أومنُ بأنَّ عضلات يديه تستطيعُ حمايتي،
وبأنَّ عينَيه قادرتان أن تعرِفا ما أريده، لتُلبِّيه حالًا.
كثيرًا ما كنتُ أذهبُ معه إلى حديقةٍ في حيِّنا
نتبادَلُ ركلَ الكرة فوق العشب المبعثر، حتَّى نتصبَّبَ عرقًا.

كنَّا بعدَها نجلس على مقعد الحديقة
المطليِّ باللون الأخضر ونشرب المياه الغازيَّة.
كان أبي جميلًا كرَوعة تناوُل المثلَّجات في حرِّ الصيف
بعد اللعب مع أصدقائي في الشارع.

دائمًا ما كنتُ أجلسُ معَه لنصلِّي.
تعلَّمتُ منه ترديد كلمات الصلاة، وأنَّ الله في السماء
وعلينا أن نفعلَ الأمورَ الحَسَنةَ لئلَّا يحزنَ منَّا.
كنتُ أخاف أحيانًا في الليل
من أن يظهَرَ الله أمامي ليُحاسِبَني ويلومَني
على نظري إلى ورقة صديقي في الامتحان،
أو لأنِّي وضعْتُ قطعةً نقديَّةً في الغسَّالة دون علم أمِّي
لأكتشفَ إنْ كانت الغسَّالة "ستنفجر".
لكنِّي كنتُ أحاول دائمًا ألَّا أخطئ كي يظلَّ راضيًا عنِّي.
لطالما استيقظتُ ليلًا متعرِّقًا

من كوابيسَ أشعلتني بنارٍ برتقاليَّة.
عندما أردتُ تخيُّله، كنتُ أنظرُ إلى سقف غرفتي
وأتخيَّلهُ بلباسٍ أبيَضَ وعصا طويلة غير منمَّقة،
واقفًا في طريقٍ على يساره نارٌ لاهبةٌ وصراخ،
وعلى يمينه شجرٌ وبحيرة وشمس.

كانت عَينا أمِّي سوداوَين برُموشٍ منقلبة،
وشفتاها رفيعتَين، وشعرُها أسودَ طَويلًا
يشبه شعرَ الفرس الأصيل.
أمَّا ذراعا أبي فكانتا كثيرتي العروق،
وهما ذاك الذي كانت عيناي تهتمَّان برؤيته.
كان حِضنُ أمِّي دافئًا ومريحًا،
فكان باتِّساعه كأنَّه مدينتي.

وكلُّ ما أستطيعُ تذكُّره
هو شارعُ منزلي الضيِّقُ برصيفٍ صغير

حتَّى إنَّه لا يتَّسع إلَّا لقدميَّ الصغيرتَين ملتصقتَين،
كما أذكُرُ أرضًا كثيرة الحُفَرِ أوقعتني مرَّاتٍ عدَّة
وأنا أركبُ درَّاجتي.
وأذكُرُ أيضًا شارع مدرستي، والشارعَ الطويلَ المشجَّر
الذي يربط ما بين المدرسة والبيت،
وقد اعتدتُ أن أقطعَه ممسكًا بيَد أبي
لأمرَّ بأمانٍ ما بين زحام السيَّارات.
لكنِّي أعتقدُ أنَّ أجملُ ما في الرقَّة
هو قلعةٌ عانيتُ حتَّى حفظتُ اسمَها: قلعة جعبر.

أخذَتْ هذه القلعةُ من تراب أرض الرقَّة اللونَ العسليَّ،
وأضافت إلى نفسِها مزيدًا من العسل الحلو
لتفتحَ فمي كلَّما اقتربتُ منها.
إنَّها قلعةٌ كبيرةٌ وشبه جزيرة صغيرة،
حيث تحتضنُها مياه نهر الفرات من ثلاث جهات،

ثمَّ يلفُّها سوران يتوِّجُهُما عددٌ كبيرٌ من الأبراج،
بعضها مضلَّعٌ وبعضُها الآخر نصف دائريّ.

وما لفَتَ نظري أنَّه رغم اختلاف أشكال الأبراج،
فإنَّها تشكِّل معًا سورَين عظيمَين وترسمُ لوحةً منمَّقةً
تجذبُ كلَّ زائرٍ للنَّظر إليها والتأمل فيها.
أخبرني والدي مرَّةً حينما كنتُ متعجِّبًا
من شموخ هذه القلعة، رغم بعض أجزائها المهدَّمة،
بأنَّ هذه القلعة صَمَدتْ بعد أن غُمِرَتْ بالماء
قبل بناء سدِّ الفرات.

ليست الشوارع والحجارة هي فقط ما بقيَ راسخًا
في ذاكرتي ومحفورًا في قلبي،
بل لي أيضًا ذكرياتٌ مع أناسٍ فيها.
أكثر ما أحببته في حيِّنا هم أولاد الجيران.
ورغم أنَّ أعمارَهم كانت أكبر من عمري،

فقد كنتُ أشعرُ بالسعادة والتسلية عندما نلعبُ معًا،
أو حينما يقرعون جرس البيت للسؤال عنِّي.
بالتأكيد، الحبُّ الذي أشعرُ به في حضوري بين والديَّ
أكبرُ بكثيرٍ من الحبِّ الذي أشعرُ به
في حضوري وأنا ألعبُ معهم.
غير أنَّ حبَّهم لي كان مهمًّا ومميَّزًا عندي.

كنَّا دائمًا نجتمع على درج بنايَتِنا لنلعبَ الورقَ،
أو نشنَّ الحروب بين حيواناتي المطاطيَّة الملوَّنة
وجنودهم زيتيَّة اللون المصنوعة من البلاستيك.
كنتُ دائمًا أخبرهم عن أبي وقوَّته،
وأنقلُ إليهم متفاخرًا كلَّ القصص التي كان يرويها لي
عن بطولاته في عمر الشباب.
كان أبي قد أخبرني في إحدى الليالي
عن انقضاضه على أحد اللصوص الذين حاولوا

الاقتراب من امرأة مسنَّة كانت تمشي في الشارع أمامه.
وهكذا كان الأولادُ يجتمعون حولي متحمِّسين،
فأقف أنا على درجة واحدة
أعلى من الدرجة التي يجلسون عليها،
وأبدأ بجعلِهم يحرِّكون عيونهم
عندما أفتحُ عينيَّ قدرَ المستطاع،
وأرفع حاجبيَّ بينما أخبرهم بسرعة الركض
التي تمتَّعَ بها أبي وهو يلاحقُ اللصَّ
حتَّى أطاحَه أرضًا.
ثمَّ كنتُ أُحرِّك يدي يمينًا وشمالًا،
ثمَّ أقبضها،
وبعد ذلك أُنزِلُها وأرفعُها في الهواء
وأنا أخبرهم بالكيفيَّة
التي أنقذ بها أبي حياة تلك المرأة.

كانت أيَّامًا جميلةً تتوالى أحداثها بسلالة طبيعيَّة.

وفي أحَدِ الأيَّام وقعَ ما يصعبُ جدًّا تصديقه...